الصبور

الاسم هو الصبور .

بادىء ذي بدء هذا الاسم لم يرد في القرآن الكريم ، ولكنه ورد في السنة المطهرة ، في الحديث الشريف الذي يتحدث عن الأسماء الحسنى ، ولكنَّ دلالات هذا الاسم وردت كثيراً في القرآن الكريم ، فالصبور هو الذي لا يُعجّل بالعقوبة لِمَنْ عصاه فهو يُمهل ولا يُهمل ، وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تتحدث عن مدلول هذا الاسم الذي ورد في السنة ، ولم يَرِدْ صراحةً في القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ [فاطر : ٤٥] .

الإنسان أحياناً ، إذا تولى أمر عشرة أو أكثر ، فحينما يغضب منهم يتمنى أن يُنزل فيهم أشدَّ العقوبة ، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فتأخير العقوبة هو مدلول اسم الصبور ، مرّت معنا آية من قبل وهي قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه : ١٢٩] .

يعني كان لِزاماً أن ينزل الله بالعُصاة أشد العقاب ، وأن يُنهيَهم ويبيدهم ، ولكنَّ كلمة سبقت من الله عز وجل هي التي تجعل العقوبة متأخرة . فما هي هذه الكلمة ؟ هي : إن رحمتي سبقت غضبي ، ماهذه الكلمة ؟ إن الله خلق الخلق ليرحمهم ، ما الذي يؤخر إنزال العقوبات الحاسمة ؟ هو رحمة الله عزّ وجل ؛ يعني كأن الله عزّ وجل يُعطي الناس فرصةً ليتوبوا ، يُعطيهم فرصةً ليرجعوا لِيُنيبوا ليصححوا ليستغفروا ؛ لذلك الله عز وجل قال :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

فما دام الإنسان في استغفار فرحمة الله قريبة منه ومغفرته واسعة ، حيث إن القصد هو إصلاحه ، والقصد هو إسعاده ، والقصد هو إكرامه ، ولو أن القصد تطبيق القوانين لما ترك على ظهرها من دابة ، لو أن كل إنسان عصى الله عزّ وجل أنهاه الله عزّ وجل بعقوبة قاصمة ما ترك على ظهرها من دابة ، فتأخير العقاب مدلول اسم الصبور قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ .

وهذه آية أخرى تدل على مدلول الصبور قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢] .

إذاً : هذه الآية الثانية تُفيد أن الصبور هو الذي يؤخر العقاب ،

ولكنِ يطالعنا هنا سؤال : هل يلتقي هذا الاسم مع اسم لله آخر ؟ يتشابهان ويلتقيان في الدلالة هذا جميل ؛ نعم : « **الحليم** » إذاً اسم الصبور يلتقي مع اسم الحليم وهذا حسن . فكيف يفترقان ؟ وهل يتطابق اسم الصبور مع اسم الحليم تطابقاً تاماً ؟ طبعاً لا ، إذاً يفترقان ، فكيف يفترقان ؟ دقق في هذه الآية : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الله صبور ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

قالوا : المُذنِب أشدُّ أمناً مع الحليم منه مع الصبور ، أي أن الصبور من شأنه تأخير العقاب ، أما اسم الحليم فقد يلتقي مع اسم العفوّ ، لكنَّ إنزال العقاب قد يستدعي التريث ، أليس هناك حالات في الطب لابد من بتر عضو فاسد ؟ ولو كان الطبيب هو الأب ، ويجب أن تعلم أن الشيء الذي وقع لابُدَّ مِن أن يقع ، ولو لم يقع لكان عدم وقوعه نقصاً في الحِكمة ؛ الشيء الذي وقع لابُدَّ من أن يقع ، ووقوعه رحمةٌ وفضل وعدل ولطف وعفو وصبر ، لذلك أحياناً يتحدث ربنا عن ذاته فيستخدم ضمير الجمع :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

حينما يتحدث ربنا عز وجل عن ذاته يستخدم ضمير المفرد وأحياناً يستخدم ضمير الجمع :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه : ١٤] .

الله عزّ وجل له ذات وله أسماء ، فإذا تحدث بضمير المُفرد فهو

يتحدث عن ذاته ، وإذا تحدث بضمير الجمع فإنما هو يتحدث عن أسمائه ، ويجب أن تعلم علم يقين أن أسماء الله كلها حُسنى ، وكلها تشترك في أفعاله ، فأفعاله فيها رحمة وفيها عدالة وفيها قوة وفيها غِنىً وفيها عِزة وفيها جبروت وفيها من أسماء الله الحسُنى ما فيها .

آية ثالثة تؤكد مفهوم الصبر قوله تعالى :

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج : ٤٨] .

فالإنسان أحياناً يختل توازنه حينما يرى كافراً قوياً شديداً عتيداً مستعلياً يزداد قوة ومنعة وغنىً وسيطرةً ، وقد يسأل الإنسان نفسه : أين الله ؟ ربنا عزّ وجل بماذا يجيب عن هذا السؤال ؛ إذا رأيت الكافر يزداد قوةً وغِنىً وسيطرةً واستعلاءً وجبروتاً ويتحدى ويَسخَر ويستهزىء فاذكر فرعون ، ألم يقل فرعون : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات : ٢٤] فأينَ الله ؟ بماذا أجاب الله عزّ وجل في القرآن الكريم عن هذا السؤال ؟ قال الله تعالى :

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران : ١٩٦ـ١٩٧] .

إجابة أخرى قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

جواب ثالث قوله تعالى :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

الله عزّ وجل ليسَ غافلاً ، فاللهُ عزّ وجل من أجل أن يكشف الإنسان على حقيقته يُملي له ، ويُعطي له من القوة ، ومن الشأن ، ومن الوجاهة ما يكشفه على حقيقته ، فهل الإنسان العاقل يطمئن إلى قوّته ؟ هل يطمئن إلى ماله الوفير ؟ هل يطمئن إلى مركزه القوي ؟ لا . أبداً ، العاقل يطمئن إلى طاعة الله ، يجب أن تطمئن حينما تُطيع الله عزّ وجل . أما إذا كُنت قوياً أو إذا كُنت غنياً أو إذا كُنت وجيهاً هذه أشياء تُسلَبُ في لحظة واحدة . عطاؤه عجيب ، وأخذه عجيب .

زارني طبيب وذكر لي قصة وقعت قبل يومَين من زيارته ، أن فتاة متخلفة عقلياً تأخر كلامها سنتين ، وفيها عِلّة في دماغها ، وهذه العِلّة ظهرت في مشيتها العرجاء ، تشكو من ضعف في أعصابها الحركية ومصدرها الدماغ ، وتشكو من تأخر في نُطقِها ، وهذه آفة مصدرها الدماغ ، ويكاد يكون الشفاء مستحيلاً ، قبل يومين أو ثلاثة كُسِرت رجلها ، فأُخذت إلى مستشفى العظام ، وأعطيت مخدراً لشدة الألم الذي انتابها حين تَجبير عظمها ، بعدما انتهت العملية انطلقت في الكلام ومشت مشياً طبيعياً فجاء أبوها وقال : ما هذا ؟ ما علاقة ما جرى لها بما صلح من نُطقِها ومن حركتها ؟ فالله على كل شيء قدير ، كسرُ هذه الرجل كان سبباً ، ولعلَّ هذا المخدر أيقظَ مكاناً في الدماغ كان في سبات ، فربُّنا عز وجل يُعطي ويدهش ، ويأخذ ويُدهش .

وإليك آيةً أخرى تدل على اسم الصبور قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٢ـ١٨٣] .

ذات يوم سألتُ أحد الإخوة المتخصصين عن كلمة متين ؛ فقال إن كلمة متين تستعمل في الفيزياء للتعبير عن مقاومة قُوى الشد ، والقساوة ، وتستعمل للتعبيرعن مقاومة قوى الضغط ، فالشيء الذي يتحمل قُوى الضغط يقال له : قاسٍ ، والشيء الذي يتحمل قُوى الشدّ يقال له : متين ، فما وجه العلاقة بين كيد الله عزّ وجل ومتانته ؟ قوله تعالى :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٣] .

فالإنسان لا يُمكن أن ينجو من قبضة الله ؛ كأن كيد الله حبل متين لا يُمكن أن ينقطع أبداً .

وهذه آية خامسة هي قوله تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف : ٥٨] .

وبعد ، فهل مرَّ معنا في السيرة موقف بدا فيه صبر الله عزّ وجل واضحاً ؟ لعله في الحديبية عندما أبرم صُلح الحديبيّة ؟ حيثُ إنَّ الله عزّ وجل يعلم أن في كفار قريش رجالاً مؤمنين ، ونساءً مؤمنات ، يكتمون إيمانهم ، ولا يعلمهم المؤمنون ؛ فربنا عزّ وجل رحمةً بهم وتأخيراً للعقوبة عن الكفار ، أخّرَ فتح مكة من أجلهم ، هذا من اسم الصبور . هو صبور ، وقد أمرنا بالصبر ، قال تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[الأحقاف : ٣٥].

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

ما معنى :

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر : ٧] .

هناك صبر لغير الله ؛ قد تكون إنساناً مستضعَفاً ولك عدو يُنكّل بك ، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فأنت صابر لا لأنك صبور ، بل لأنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فليس هذا من الصبر الذي أمرنا الله تعالى به . إنّما الصبر أن تكون قادراً على أن تفعل شيئاً ولكن إيمانك بالله عزّ وجل يلجمك وتصبر ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ وأحياناً يتوهم الإنسان أن بإمكانه أن يصبر ، فإذا هو في بعض الحالات لا يصبر ، كان يبدو أن بإمكانه أن يصبر ، فإذا هو ينفجرّ كيف نحل هذه المشكلة ؟ قوله :

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

أنت لا تصبر إلاّ إذا أعانك الله على الصبر ، فهل هناك آية يرتفع بها الصبر إلى أعلى مستوى ؟ نحن عندنا قاعدة ، وهي أن العطف يقتضي التجانس ؛ إذ لا تستطيع أن تقول : اشتريت بيتاً وملعقةً ، لعدم التناسب ، هذا ولقد جُمع الصبر مع الصلاة ، وجُمع الصبر مع الحظ العظيم ، وجُمع الصبر مع الجزاء بغير حساب ، وجُمع الصبر مع الحق .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾

[العصر : ٣]

وإذا قرأنا الآية التي وردت في آخر آل عمران فلعلنا نتبين شيئاً من ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

فالصبر معروف ، أما المُصابرة فهي : أن تُعِينَ أخاك على الصبر ، لذلك قالوا : لا تكن عوناً للشيطان على أخيك ، وكُن عوناً لأخيك على الشيطان ؛ أي أنت إذا أعنته وبيّنت له وخففت عنه مصابه ، وواسيتَه بمالك ؛ فلعلّ في ذلك معاونةً لأخيك على الصبر ، وقال موسى لقومه :

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ .

أما أوضح آية متعلقة بالصبر والتي معناها يُثلج الصدر فهي قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٥٥ـ١٥٧].

هذه المصائب لمن ؟ للمؤمنين ، هذه المصائب للمؤمنين خاصة . . . لنبلونكم أيها المؤمنون بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، إذاً الصابر هو الذي يصبر على تربية الله له ، فما معنى أنك صابر ؟ يعني أن الله يُربيك وأنت تفهم عن الله عزّ وجل وتصبر ، إذاً من هو الصابر ؟ هو إنسان راشد مثلاً يجلس على كرسي طبيب الأسنان فيعلم علم يقين أنه مُتقِن

لصنعته ، وأنه عليم باختصاصه ، وأن بحوثاً عديدة اطلع عليها وأن أُناساً كثيرين أَثْنَوا عليه ، وأنه تعلَّم عِلماً صحيحاً ، وأن يده فيها مرونة كبيرة ، وعنده وسائل جيدة ، وأن كل ما يفعله بك طبيب الأسنان هو في صالح أسنانك ؛ لذلك ولو آلمك في بعض الأحيان فلابُدَّ أن تصبر ، فمن الذي يصبر إذاً ؟ هو الذي فهم على الطبيب ، وَثِقَ من علمه ومن خبرته ومن نصيحته ، وهو يتحمل معالجة هذا الطبيب لأسنانه ، هذا بشكل مُبسّط .

إذاً هناك إنسان صابر ، فنحن في واقع الحياة لدينا عِلل كثيرة ، وربنا عز وجل يتولى تربية هذه النفس ، لذلك فاقرأ الأثر التالي وتأمل : « **وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه** » .

النهاية السعيدة أن تصل إلى دار السلام بسلام ، النهاية الموفقة أن تقول من أعماق أعماقك : الحمد لله رب العالمين ، النهاية التي ليس بعدها ولا قبلها ؛ أن ترث جنة عرضها السموات والأرض ، إذاً فالصابر إنسان فَهِمَ عن الله عزّ وجل مراده .

تروي كتب السيرة أنّهُ بعد وفاة النبي ﷺ ، حدثت هناك اضطرابات وفتن وبدت بوادر رِدَّة ، رِدَّة كبيرة جداً ؛ بل أصبحت المدينة مهددة بالخطر والنبي ﷺ كان قد جهز جيشاً لفتح بلاد الشام أمَّر عليه أسامة ، ورأى أصحاب النبي ﷺ أنه من الحكمة ألا ينفذ أبو بكر الخليفة بعث أسامة ؛ لأن البلاد مقبلة على فتنة واضطرابات داخلية ،

أيُعقل أن تذرّ الاضطرابات قرنها ، ونرسل جيشاً لفتح الشام ؟ فهذا منطق غير مقبول ؛ فأصحاب النبي ﷺ اضطربوا وتمنوا على سيدنا الصديق ألا يرسل هذا الجيش ، وتهامسوا فيما بينهم ، وانتقل الخبر لسيدنا عمر ، فسيدنا عمر جاء لِيُبلّغ سيدنا الصديق هذه الرغبة وتَبَنَّاها ، ولكن سيدنا الصديق أراد أن يُربي الأصحاب تربيةً حاسمة ، فما كان منه إلا أن أمسك بلحية عمر وهزَّها هزاً شديداً وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ؛ أجبار في الجاهلية خوّار في الإسلام ؟! فلما رأى أصحاب النبي ما فعل الصديق بعمر ارتعدت فرائصهم ، وندموا على خواطرهم ، وانصاعوا لأمر سيدنا الصديق ، لماذا صبر سيدنا عمر على أخذ الصديق بلحيته وهَزَّها هزاً شديداً ، وقال له : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أجبار في الجاهلية خوّار في الاسلام ؟ لأنه فهِم عن سيدنا الصديق مراده البعيد .

ماذا قال ابن عطاء الله السكندري : « **إذا كَشَفَ الله لك حِكمته في المنْع عاد المنع عين العطاء** » ، فربما كان الإحسان من الله حِرماناً ، وربما كان المنع من الله إحساناً ، فمتى يصبر الإنسان ؟ من الذي يصبر ؟ الذي يعرف الله عزّ وجل ، أمّا الذي لا يعرف الله عزّ وجل فلا يصبر ، بل بالعكس يُزمجر ويتكلّم كلاماً سيئاً يُسجّل عليه ، علامةُ معرفتك بالله صبرُك على قضائه وقدره ، لكن كلَّ حسنةٍ بعشرِ أمثالها ، وكل شيء له حساب ، إلا أن الصابرين كما قال الله :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

فأما الصابرون فإنهم يوفُّون أجورهم بغير حساب ؛ فهذا المُحسن

حينما صبر كأن لسان حاله يقول يا رب : عالجني كما تُريد ، وأنا أصبر ، يا رب أنت ربي لا إله إلا أنت ، أنت وليّي في الدنيا والآخرة ، عالجني كما تريد أنا أصبر على معالجتك ، كأن لِسان حال الصابر يقول : يا رب أصبر في الدنيا ولا أصبر في الآخرة ، القضية في الدنيا مقبولة ، أما في الآخرة فالخزي لا يُحتمل ؛ والنبي عليه الصلاة والسلام قبَيل وفاته وقف بين أصحابه وخَطَبَ خُطبةً مؤثرةً :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : « **إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ** » ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ : فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا . [رواه البخاري] .

مثلاً لو طالبٌ سرق قلم حبر ، وكُشِفَ أمره أمام رفيقه فهذا شيء قد يهون ، أما إذا كُشِفَ أمره أمام طلاب الصف كلهم فهذا شيءٌ آخر فضيحة صارخة ، أما إذا كُشِفَ أمره في الباحة أمام ثلاثين شعبة فهذا شيءٌ أكبر وفضيحة تنتشر كالنار في الهشيم .

فضوح الدنيا أهون ، أنت ساكنٌ في مدينة ، في حي من الأحياء هناكَ من يعرفك وهم قِلّة ، أما على رؤوس الأشهاد إذ يقف هؤلاء الفُساق والفجارمواقف الخزي والعار :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قَالَ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ : « **يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا** » . [رواه مسلم وأحمد] .

قال له : يا أبا ذر إنها أمانة ، سيدنا أبو ذر قال : يا رسول الله

استعملني ـ أي اجعل لي وظيفة ـ ، قال : يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خِزيٌ وندامة .

فالصابر كأنه يقول : عالجْني يا رب قبل أن أموت ، يا رب لا تمتني حتى تطهرني من ذنوبي ومن عيوبي ومن أَدْراني ، فالإنسان العاقل يجتهد لتنقية نفسه من كل مرض ، لأن الله عز وجل يقول :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ـ٨٩] .

إذاً : إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب ، والآية التي تتحدث عن الصبر قوله تعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

هذه معيّة خاصّة أم عامة ؟ إنها معيّة خاصّة ؛ لأنَّ المعيّة الخاصّة تعني التأييد والنصر والتوفيق والحِفظ ، حيثما وردت في القرآن الكريم معيّة خاصّة ، تعني التأييد والنصر والتوفيق والحفظ ، ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقال جلَّ شأنه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

مع الصابرين بالرعاية والحفظ والتأييد والتوفيق ، والله عزّ وجل يوفيهم أجورهم بغير حساب ، والله يُحبهم ويوفيهم أجرهم بغير حساب ، لماذا يُحبهم ؟ لأنهم قَبِلوا معالجته ، أحياناً أنسب شيء هو معالجة المرض من دون مخدّر ، أما إذا رفض هذا الإنسان وصاح وتكلم كلاماً قاسياً ، فإنه عندئذٍ يضطر الطبيب أن يسلك معه الطريق

الأطول الأخطرَ في العلاج ، ربنا عزّ وجل حينما يرى عبداً صابراً معنى ذلك أن هذا العبد قد رضي بمعالجة الله له ، وأن يستسلم لقضائه وقدره ، هذا هو معنى الصبر .

الصبر شيء عظيم ، والإنسان الغربي من شدة بُعدهِ عن الله يقف في حياته موقفين : إما أن ينال ما يصبو إليه ، وإما أن ينتحر ؛ فإذا فقد الشيء الذي يصبو إليه إضافةً إلى بُعده عن الله ، فإمّا أن ينال طِلبته ، وإمّا أن يصاب بأمراض نفسية إذا لم ينتحر ؛ أمراض الإحباطِ ، الكآبةِ السوداوية ، انفصام الشخصية ، هذه كلها أمراض نفسية ، أساسها إنسان تعرض لمصائب وهو لا يعرف الله عزّ وجل ، والأمراض النفسية أساسها عدم معرفة الله عزّ وجل .

إذاً الخلاصة بتمامها : إيّاك أن تصبر لغير الله ، فعندئذٍ ليس لك من أجر ، فمثلاً قد يُضايقك شخص قوي متسلط وأنت صابر ، فالله عزّ وجل يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٢ـ٢٤] .

دخلتم الجنة ، ووصلتم إلى أعلى درجة يتمناها كل إنسان على وجه الأرض ، وصلتم إلى دار السلام ، إلى جنةٍ عرضُها السموات والأرض ، وصلتم إلى سعادة الأبد ، وصلتم إلى نعيم مُقيم ، وصلتم إلى دارٍ لا خروج منها ولا قلق فيها ، ولا مرض ، ولا منافسة ، ولا تحاسد ، ولا . . ، ومن بعد فهذه الجنة مهيأة لك ما ثمنُها ؟

قال ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ ، صبركم كان ثمن الجنة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ ، انظر إلى صبر المؤمن ، فالمؤمن دائماً في صبر . على المَرَض صابر ، مشكلة في بيته صابر ، يُعامَل بقسوة صابر ، دَخْله قليل صابر ، مُنغِّصات في عمله صابر ، إنه يرى قدرة الله عزّ وجل والإنسان إذا كان بإمكانه أن يمنع عنه الأذى ولا يمنع عنه الأذى فهو عاصٍ ، وليس بصابر ، الصابر إذا كُنت لا تستطيع أن تُزيل عنك هذا الأذى ، الصبر عند استنفاذ الجُهد .

هناك قضية مزعجة وبإمكاني أن أعالجها ، فقد يقول قائل : هذا الأمر أو البلاء من قضاء الله وقدره ، فمن قال لك ذلك ؟ إن كان من قضاء الله وقدره فالحلّ يتم بقضاء الله وقدره كذلك .

فهذا سيدنا عمر عندما قدم إلى الشام أيام وجود الطاعون بها فامتنع عن دخولها فقيل له يا أمير المؤمنين : أَتفِرُّ من قضاء الله ؟ قال : نعم أفر من قضاء الله إلى قضاء الله ، وقال : لو كنتَ تملك قطيعاً من الغنم ، وهناك أرض مُجدِبة وأرض مُخصِبة ، أين سترعى غنمك ؟ إن رعَيْتها بالأرض المجدبة فبقضاء الله ، وإن رعيتها بالأرض المخصبة فبقضاء الله أنا أفِرُّ من أرضٍ مُجدبة بقضاء الله إلى أرضٍ مُخصِبة بقضاء الله ، هذا هوالتفكير العلمي ، فإذا أمكن علاج الابن عند طبيب فلا يجوز الاستسلام بِحُجّةِ أنه صابر ، لا ، بل نقول له : أنت مُقصّر ؛ إذ ليس هذا هو قضاء الله عزّ وجل ، فحينما لا تملك حيلةً فعندئذٍ أنت معذور .

ماذا روي عن النبي الكريم ﷺ في الطائف : « **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس** » ، لقد اجتهد حينم

خرج من مكة إلى الطائف لعلهم يؤمنون ، لكنه شكا قلة حيلته ، وأنت كونك إنساناً تقف أمام بعض الأمور عاجزاً ؛ لكن إذا أمكنك الحركة فيجب أن تتحرك ، إلا أنك حينما تفقد الحيلة يأتي دور الصبر ، إذاً الصبر يأتي حينما تنعدم الحيلة .

سيدنا عمر أشار إلى أن الصبر نِعمةٌ من نِعَم الله الكُبرى ، كان إذا أصابته مصيبة قال : « الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني ، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها ، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها » ، لأن الله عز وجل يقول :

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ وإليك الآية الثانية أيها القارىء الكريم :

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

سيدنا أيوب ثبتت فيه آيةٌ ـ سبحان الله ـ أَتذَوَّق منها الشيء الكثير ، لِمَ حدثنا ربنا على صبره قال في هذه الآية :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

[ص : ٤٤]

﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ﴾ ، أحيانا يبعث الله لك بلاءً ليَرَى موقفك .

على كُلِّ الإنسان ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ﴾ ، فالله يمتحن الإنسان يُتلف له شيئاً من حاجياته ، يُحبط له بعضاً من مساعيه ، لا تتحقق له بعض

غاياته ، هو تحت المراقبة! سيدنا أيوب ماذا كان وضعه ؟ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ أجمل موقف يقفه المؤمن حينما يتلقى خبراً سيئاً أن يقول : الحمد لله رب العالمين ، يا رب لك الحمد هذه حِكمتُك ، وهذا قضاؤك ، وهذا قدرك ، وأنا راضٍ بحِكمتك ، اللهم ألهمني الصبر ، هذا أعظم موقف يقفه المؤمن لاتظنَّ أن الإنسان أيّاً كان لن يتعرض لمواقف فيها امتحان ، لكنه حينما يقول : الحمد لله فقد نجح .

الإيمان كله صبر يقال : « **الإيمان نصفان ؛ فنصف في الصبر ونصف في الشكر** » ، ثم إني وجدت حديثاً شافياً جداً : سئل : ما الإيمان ؟ قال : « **السماحة والصبر** » .

في الأساس الجنةُ لها ثمنٌ ، وثمنها أن الله عزّ وجل ركّبَ في الإنسان طبعاً ، وكل التكاليف عكس طبعه ، ركّبَ فيك حُبَّ المال وأمرك بإنفاق المال ، وركّبَ فيك حُبَّ الراحة ، وأمرك بصلاة قبل طلوع الشمس ، وركّبَ فيك فضولية في أخبار الناس ، وأمرك أن تسكت عن الغيبة والنميمة ، لو تتبعت أوامر الشرع لوجدت أنك لن تستطيع تطبيقها إلا إذا خالفت طبيعة نفسك ، إذاً الدين كله صبرٌ ، فمن هو الكافر ؟ هو إنسان ينساق مع شهواته ومع أهوائه ومع ميوله وحظوظه ومصالحه ، ومن هو المؤمن ؟ هو الذي عاكس هواه وشهوته وميوله وحظوظه وطبّقَ منهج ربه .

فإذا أردت أن تقول لي : الدين كله صبر ؟ ، أقول لك : نعم الإيمان هو الصبر والسماحة ، الصبر سَلْبي ، السماحة إيجابية ، أن تصبر عن المعصية ، وأن تصبر على الطاعة ، وأن تصبر على الأمر التكويني ثلاثة مناهل : صبر عن المعصية ، وصبر على الطاعة ،

وصبر على الأمر التكويني ، فلذلك من السذاجة أن تَظُنَّ أنَّ الفقير فقط عليه أن يصبر ، فمن قال لك هذا ؟ إذا كان صبر الفقير عن موضوع واحد فالغني أشد حاجةً إلى الصبر من الفقير ، لماذا ؟ لأنَّ الغني يمتلك خيارات كثيرة جداً لغناه وسعة دنياه ، مثلاً إذا قُلنا للضعيف : اصبر ، فالحقيقة أنّ القوي أشد حاجةً ألف مرة إلى الصبر من الضعيف ، لأنَّ الضعيف قدرته ضعيفة ، أما القوي فبإمكانه أن يفعل كل شيء ، لكنه إن خاف من الله عز وجل لم يفعل شيئاً ، فهذا الدليل :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

[الأنبياء : ٣٥]

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ، بالخير أنت مُمتحَن ، بالمال مُمتحن ، بالقوة مُمتحَن بالشباب ، ولقد أمضيت أكثر من شهرين فيما أذكر في خُطب جامع النابلسي أعالج موضوع الصبر ؛ قد نمضي شهرين أو ثلاثة حول الصبر ، والنتيجة أن الدين كُلهُ صبر ، فمثلاً الشجاعة صبر ، لكن الهروب انسجام مع حب الحياة ، إن الجسم يحتاج إلى استلقاء وراحة ، جاء للبيت مساءً مُتعباً أكل ونام ، هكذا كثير من الناس ، أما المؤمن فعليه صلاة العشاء ؛ أكل وتوضأ وصلى الفرض والسُّنّة والوِتر فهذا صَبَر ثم نام ، في الساعة الواحدة ليلاً والفراش وثير ، والجو شتوي ، والفراش دافىء ، وغداً يومُ عطلة ؛ فسمع أذان الفجر ، الآن سيَصْبِر على ترك الفراش ، وينهض للصلاة ، لو تتبعت الأمور فأنت مُمتحن في كل لحظة ، مرت امرأة جميلة وفي ثياب فاضحة أنتَ إذا نظرتَ إليها فقد انسجمت مع شهوتك إلى النساء ، أمّا إذا غضضت بصرك عنها غضاً حازماً فقد

عاكست شهوتك ، إذاً أنت صابر ، فما هو الصبر ؟ مخالفة شهوات النفس وأنت مُكلّف أن تصبر في كُل دقيقة .

قال بعض العارفين : إذا أقامك الله في مقام الشكر فكُنْ من الشاكرين ، وإذا أقامك في مقام الصبر فكُنْ من الصابرين ، المؤمن في الرخاء شكور وفي الزلازل صبور ، بالذي له ، لا يأخذ ما ليس له في الرخاء شكور وفي الزلازل صبور .

فأنتَ بينَ الشُّكر والصبر ، لابُدَّ من التنويه إلى أن المؤمن يجب أن يطلب من الله العافية ، وهذا مأخوذ من رسول الله ﷺ :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « **سَلْ رَبَّكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** » ، ثُمَّ أَتَاهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « **سَلْ رَبَّكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** » ، ثُمَّ أَتَاهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « **سَلْ رَبَّكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؛ فَإِذَا أُعْطِيتَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَقَدْ أَفْلَحْتَ** » . [رواه الترمذي] .

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

وفي الطائف قال عليه الصلاة والسلام : « **إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أُبالي غير أن عافيتك أوسع لي** » .

عزيزي القارىء : سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فإذا أُعطيت العافية في الدنيا وأُعطيتها في الآخرة فقد أفلحت وأنجحت إن شاء الله .

في ختام هذا البحث إن الله جل جلاله صبور على عباده ، وإن عَصَوْهُ ، وهو يوافق اسم الرحمن جلَّ جلاله ، قد وسِعت رحمته كل شيء في الدنيا والآخرة ، والله يقول الحق ، وهو يهدي إلى صراط مستقيم .

* * *